الحمد لله الذي أكمل لهذه الأمة شرائع الإسلام، وفرض على المستطيع منهم حج بيته الحرام، ورتب عليه جزيل الفضل والإنعام، والصلاةوالسلام علي أفضل من صلى وصام, وحج بيت الله الحرام، وعلي آله وأصحابه البررة الكرام، وعلى التابعين لهم بإحسان

عباد الله:

الحج تلبية لنداء الله -جل وعلا- إذ يقول: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (27) سورة الحج. قال ابن كثير -رحمه الله-: "أي: نادِ في الناس داعياً لهم إلى الحجّ إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه, فذُكِر أنّه قال: يا ربّ، وكيف أبلغ الناس وصوتي لا يصلهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ, فقام على أبي قبيس, وقال: "أيّها النّاس، إنّ ربّكم قد اتخذ بيتًا فحجُّوه، فيقال: إنّ الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كلُّ شيءٍ سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنّه يحجّ إلى يوم القيامة".

ومما يدل على أن شعائر الحجّ من إرث إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- ما ثبت عن ابن مِرْبَعٍ الْأَنْصَارِيِّ –رضي الله عنه- قَالَ: "أَمَا إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَيْكُمْ يَقُولُ لَكُمْ: (قِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)رواه ابوداوود فالحج استجابة لدعاء نبي الله الخليل: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} (37) سورة إبراهيم. ألا ترون الناس ترُفُّ أعينهم لرؤية ذلك البيت وتَحِنُّ قلوبهم للطواف به, واستلام ركنه وتقبيل الحجر الأسود؟ حتى في صلاتهم يتوجهون إليه؛ لأن صلتهم بربهم موصولة به, وكأنهم يسعون لإطفاء حر الشوق بتوجههم إليه ولو من بعيد, إنهم يحاولون تخفيف أشواقهم وإطفاء لهب نفوسهم فتتجمع القطرات في أعينهم خضوعاً... ثم ما تلبث أن تسيل منها دموعاً, وهم يدركون أن الحج ومناسكه في الأصل مشاعر ومواقف عاشها إبراهيم الخليل نفسه -عليه السلام- أو زوجه أو ولده أو هم جميعاً، فيعيشون بأحاسيسهم ذكرياته, وامتحان الخليلِ لخليلِه, فيكاد اليأس يغمر قلوبهم كيف يُبتَلى الخليلُ وهو الخليل بهذا البلاء المبين!! ثم تمتلئ أساريرهم بعقبى ذلك الابتلاء, {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} (125) سورة النساء.

يراه حبيبنا المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ليلة المعراج في السماء السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور جزاءً وفاقاً, وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

أيها المسلمون:

وتبدأ قصة الذكريات بقوله: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} (37) سورة إبراهيم. إنك تعجب من هذا الرجل... راسخ الإيمان؛ يترك ابنه الذي رُزِقَه على كبرٍ, وأمَّه بين تلك الجبال المظلمة وفي ذلك الوادي الموحش! فلا ترى إلا قوة تعجز عن حملها جبال ذلك الوادي استسلاماً وتسليماً, وربما

اعتذر بأنه الخليل فما ظنكم بالمرأة, تلك المخلوق الضعيف تسير خلف زوجها بعد أن تركها وولى, وهي لا تدري ما هذا المكان, ولا ترى أحداً في هذا المكان, تسأله ولا يجيب, تلحق به ولا يلتفت, فتقول بقوة الإيمان وعظمة التسليم: (آللهُ أمرك بهذا؟ آللهُ أمرك بهذا؟) فيشير إليها أن نعم, فبماذا تجيب؟ إنها تقول: إذن لا يضيعنا. لا اله إلا الله... كم في هذه المشاعر من مثير للمشاعر! تالله إنها بيوت الإيمان: زوج وزوجة وابن كلهم مستسلمون, لا اعتراض ولا تردد ولا ضعف, ولكن تنفيذ لكل أمر يأمر به المولى, واستسلام له وانقياد: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (103-105) سورة الصافات.

أيها المسلمون:

وتمر بنا الذكريات, بهاجر وابنها ولهف الأُم وسعيها بين الصفا والمروة، هدَّها الجَهد, وأضناها الخوفُ على نفسها وعلى فلذة كبدها, فهي تبحث عن الغوث في مكان لا أثر للغوث فيه, بل حرَّاً ملتهباً, ووادٍ أجرد, لكن يأتيها الغوث من حيث لا تحتسب وتتفجر زمزم ماء مباركاً منذ ذلك الحين طعام طعم وشفاء سقم, دليلاً على أن رحمة الله تنزل ولو في الصحراء القاحلة, والأرض المجدبة بل هي في تلك الظروف أقرب وأكثر تنزلاً {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} (56) سورة الأعراف.

قال ابن عبّاس –رضي الله عنهما- في قصة وضع إبراهيم -عليه السلام- لزوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت: (وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا, وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى -أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ- فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ, فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا, فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا, فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا, ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ, ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا, فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ, قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا) فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ, فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ, قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا) قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِيه هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ)رواه البخاري

كم في تلك الشعائر من قصص تعلق القلوب بذي الجلال والإكرام,و تستسلم له ولحكمته, وتضحي له لا بالكبش الأقرن, بل بفلذة الكبد الذي جاء على كبر, وتعلقت به النفس أيَّما تعلُّق, حتى ملأ شغافَ قلبها, وسكن سويداءَ فؤادِها فيقال لها اذبحيه بيدك لا بيد غيرك، كيف أتحمل موته بيدي أن أذبحه بنفسي، لكنه الإيمان لا تردد فيه.

ويعود إليك العجب لا من الأب يطأ قلبه ويحمل سكينه ليذبح ثمرة فؤاده فحسب, ولكن من الغلام اليافع يُصبِّر أباه ويدعوه لتنفيذ أمر ربه: {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (102) سورة الصافات.

إننا بأداء هذه الفريضة نسير سير الخليل ونتَّبع ملتَه, ونقتفي أثره عند كل مشعر, محققين التوحيد متبرئين من الشرك وأهلِه, وان لم نعقل بعض مظاهره لأننا قلنا (لبيك) فسلمنا أمرنا, واستسلمنا بعقولنا لأمر ربنا, فلم يكن في صدورنا حرجاً من ما قضى وسلمنا تسليماً.

أيها الناس:

كم غفل عن هذا المفهوم أقوام لم يحققوا معنى الإسلام, ولم يشعروا بقيمة الاستسلام, وهذا هو التسليم الحق والاتباع الحق, ومن اتبع محمداً -صلى الله عليه وسلم- فقد اتبع ملة إبراهيم حنيفاً فإن الله تعالى قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (123) سورة النحل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وأما الحج فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم, وشأنه أجلُّ من أن تحيط به العبارة, وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل في قوله تعالى (حنفاء لله غير مشركين) أي حجاجاً, وجعل الله بيته الحرام قياماً للناس فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه, فالحج هو خاصة الحنيفة, ومعونة الصلاة, وسر قول العبد لا إله إلا الله, فإنه مؤسَّسٌ على التوحيد المحض والمحبة الخالصة, وهو استزارةُ المحبوب لأحبابه ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته, ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم لبيك اللهم لبيك إجابة محب لدعوة حبيبه, ولهذا كان للتلبية موقع عند الله, وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى فهو لا يملك نفسه أن يقول لبيك لبيك حتى ينقطع نفسه

هذه بعض حكم وغايات الحج وهذا هو المفهوم الحق للحج، نسأل الله أن يعلمنا الحكمة والفقه في الدين، والتوبة إليه في كل حين.. نستغفر الله ونتوب إليه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين, والعاقبة للمتقين, ولا عدوان إلا على الظالمين, والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين, وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فإن من تأمل في عبادة الحج وجد أنها عبادة جامعة لعمل (البدن والمال) فصار جهاداً لا قتال فيه, ومن تأمل مناسك الحج وجدها تبدأ وتعود إلى التسليم والانقياد لله رب العالمين, فمنذ أن ينزع الحاج ملابسه المعتادة فهو يخلع معها التفكير المنطقي كما يقولون, فقد ربته أركان الإسلام على أن الله تعالى حكيم عليم, ووصلَته به وجعلته صابراً شاكراً, وجاء الحج بابتلاء العقل وامتحان صدق تسليمه واستسلامه لله, ولهذا فانه أول ما يقول

الحاج (لبيك اللهم لبيك, لبيك لا شريك لك لبيك) معلناً تمام تسليمه لمن آمن به رباً, ومتبعاً لرسوله -صـــلى الله عليه وسلم- القائل: (خذوا عني مناسككم) وفي كل مشعر هو لله موحد وله ذاكر, وإذا أنهى مناسكه ذكـــر الله أبلغ ما يكون الذكر, مستشعراً أنه يقتدي بإبراهيم خليل الرحمن الذي كان حنيفاً ولم يكُ من المشركين

نسئل الله حجامبروراوسعيامشكوراوالحمدلله رب العلمين